توفيق صايغ

بضع أسئلة لأطرحها على الكركدن

● في فجرنـا الاولي في موكب التسمية ،
والجحافـلُ تسري امام المنصّة ،
وكل حيـوان كالمستعرضَيْنِ زوجان ،
تقـدّمتَ المـوكبَ من غير قرين ،
والكلُّ مكتملٌ مكتفٍ يمشون بخطوٍ موحّدِ
قـدتَهم وحيـداً كالقرن في وسْطِ رأسك ،
مهرولاً قلقَ الخطى تفتّش بالعينين ، بالنشيق ،
على المتعذّرة الوجود حتّى في جنّة العلاء .
في الفجر الكبيرِ في الموكب الشاملِ
وحدك والاله الوحيدان .

● وكسنيه لعذرائـه سعيُكَ لعذرائك .
قرونـاً طاردهـا فتّشتْ في كل زاوية ،
وارتاح الوجدها وتبدّل .
مثلَكَ احبَّ العذرةَ ومثلكَ ابقى عليها .
الهُ حق وحيوانُ خيال :
افما تختلف النتائج ؟
ارادهـا حبّا لهُ فكانت الحبيب
واما فغيبته تسعة شهورٍ
وولدتْـه كما شاءَ وسقتْه مع الشهد الحليب .
الهُ حق وحيوانُ خيال
والسعيُ احدٌ :
فكيف تختلف النتائجُ ؟
دمُها المصانُ ألمْ

يستسقِ دَمه ولم يكن اقنى من دمك ؟
والسنون الثلاثَ والثلاثون
أأطولُ في عمر الاله من الساعات في عمرك ؟

● حبكَ العذراءَ حبُّ الاله لها
انكفاءُ ذي القرنين عنها المشققِ الحافرِ .
ارضٌ حرامٌ عليه، تربةٌ مقدسة .
سواها يقلبن مسامّهن اعضاءَ جنسٍ
مذابحَ كفرٍ وفحش ، يتلوّنَ ،
يفتحن سيقانهنَّ كافراتٍ بوجه السماء.

● وبمسراكَ الطويل
عبرَ الاخاديد والوعرِ والمجاري والتلالْ ،
كم مرة في الليالي الداكنات
برقتَ اذ مرقتَ في ضواحي البيوت المبعثرة ،
وانسبتَ كخاطرٍ وضيء واجفلتْ لما رأتك الجرارْ
بين يسري مشقّقة ورأسٍ من غير غيمْ
وانحدرتْ يمنى من الورك تتملّى
ترود ارجاءَها المتشوّقةَ لـ ، غيرِ يدها ، يدِ .

وفي الدروبِ وبين الشجر
لقيتَهنّ ووسّعتَ عيونهنّ :

ألمْ تنتعشْ بالنظرات أو لم يستهوكَ قرار
او لم تحثّكَ رجلاكَ على الاستراحة وعروقكَ ان تفيء لليلة ،
ا و لمْ تضطرب الحصونُ الخائنة
وتبعثْ لكَ بالدعوات بالاوامر بالاستغاثة ،
ولمْ يهتزّ رادارُ انفكَ ،
ايها المحبّ الغريب الذي لا ينقّلُ
واسطورةَ الحبّ الوفيّ ،
يا خيالي الميولِ لا الوجود
(اجدادُنا القدامى حللّوا لحمكَ « وقد اكلناهُ ») ،
بل اسرعَ ركضتَ اسرعَ
في قدميكَ جناحانِ في ذيلكَ فلفلُ
تطلب الوحيدةَ الداعية المستغيثة الامرة ؟

● ابداً يطاردونك .

وحوشُ الغاب ليستْ اشدّ عليكَ منَ القانصين الرشاق .
يطاردونكَ ، وتطاردها ، معاً
ليحملوا الموت لك لتحمل لها المحبة والعبادةَ لتحمل الموت لك .
ورجلاكَ لا تتعبانِ وانفسُكَ لا يكلّ .
والطرادانِ لا ينتهيان الا بانتهائكْ :
واحدةٌ نهايتاُهما فيهما انتهاؤكْ .

● حياتُكَ وتيرةَ واحدة :
ما كان حتى النهاية منذ البدء كان قبل البدء كان .
ولُدتَ قويا متكاملا سوّياً نابتَ الاسنان والقرنِ شديدَ الحوافرْ ،
وخطفتَ ممزقا الرحمَ
ناشداً الرحم الذي لن تمزّقْ .
اشهرُكَ في الرحمِ اشهرُ حجزٍ مقتّه قوّضتَ بنيانَهُ
مرةً ومرة تستهلّ سعيَك
وأرجعتَ اليه لتكمل الفترة التي حُكمتْ .
بلا اخٍ بلا اخت بلا حليلٍ او خليل .
يدُ امّك امتدتْ اليكَ
لا لتطعم فاكَ لتُشبع من لحمكَ الغضّ فاها .

● ولما اقتربتَ اليها وبشّرتَ قدميكَ بالراحةِ
ورأسكَ بالوسادة وانفكَ بعبير لا يتبخّر ،
أزاد في بشركَ بشرُها
أنستْكَ سنيومتاعبَ السعي لها سنو ومتاعبُ انتظارها لكَ ،
أأشعل اهتياجكَ ثم بللهُ
لدى ارتمائكَ على حضنها اعتناقها لك ؟
الصيدُ في اثركَ وانتَ في اثر عذرائك .
واصطدتَ عذرائكَ وما الذي اصطادته فيك ؟
هل صدّقتْ
ان هذا الابيض الصغير الظريف الهارعَ اليها
خلف قرن مديد عنيفْ حيوانٌ خرافيّ تحقّق ؟
اما خُيّل اليها وقرنه كاد يخرقها
ان الاله الخرافيّ تحقّقْ وانه الآن انتقاها

وانتقى (يا للازعرِ المحبّبِ)
قالباً له ابهى مما انتقى ليظفر باترابٍ لها في القديم ،
من البجعة المضحكة المؤخرة او الثورِ الغليظ مها تلاطف
او مزوخِ اللجين المشعّ المخيفْ ،
واينَ ، تحزّرتْ ، سيعلو بها
واية كوارثَ او مدهشات ستلدْ
واية انّاتٍ وآهاتٍ سيعرّفُ الليلةَ الالهُ الشبِق
تلك التي لمْ تعرفْ مثلَها معْ رجل؟

● بعد ركض السنينْ ليلةُ ارتياح .
رميتَ برأسكَ في حضنها ولويتَ قزنكَ عنها بعيدا .
لاعبتْكَ ووّقعتْ اصابعُها على اوتاركَ
انغاماً تشوّقتَ لها طويلا طويلا .
اخذتَ ثدييها . لسانكَ لمْ يرتوِ : الفطامُ احتضارُك .
بادلتْكَ دعابا بدعاب ، مبتدىءٌ ومبتدئة ، غرٌ وحاذقة .
سخسختَ ، وافتدت اللحظاتُ مطاردةَ طرادَ العُمُرْ .
ارتحتَ . واضطربتْ .
المقبّلاتُ طيّبةٌ ، لا تُشبعُ .
وارتياحُكَ يضنيها ويضنيها اشدّ
احساسُها خلف ارتياحكَ بما تخفّضُ من لا ارتياحك .
وقرنُكَ (ينطحُ الفيلَ يُعاركُ الليثَ)
اهزؤةٌ ، مَسبّة ، والوهتُكَ تبعث التجديفَ والارتدادَ وحسب.
غريبٌ عرُسكما
في سجلات الارض والسما ومواطنِ الجنّ .

حسبتكَ حرصتَ على العذرةِ كشرقيٍّ متزمتِ
حبّاً بالدمِ لا يكتمل العرسُ بدونه .
احجمتَ على اسالة الدمِ ،
ولن ترضى بعرسٍ ناقصِ : عوضاً عن دماها دماك .

● حيوانَ وامرأة : الهٌ في خيالَيْهما وإلهَة .
فاحتضنتِ الجسدَ الذي خالتْهُ لن يعرف ارتخاءَ ،
وارتمى ساكنا على حضنها يخاله لا جسدْ .
هفوةٌ ، ثارتْ عليها ، قلبتِ الحبَّ مقتا واحتقارا ،
هفوةٌ ، ابقتِ الحبَّ حبّا ، تقبّل لاجلها العاقبة .

● احسبتكَ فارسا وسيطا الفى على صخرة سيدة
فراح يحميها « من عدوٍّ يُرَى » واعداء في الخيال ؟
أرحتَ تحرس فيها تدفعه عنه السوى تدفع قرنكَ عنه وتأجّجكْ
ما احتضنتكَ لتطعنه وآوته لتفقدهْ
وارّختْ وفودَ الهناء بهجرانه الدامي لها ؟
اما ادركتَ ان موته حياةٌ والموت في حياتهْ ؟
وانك بنصب قرنكَ الصارمِ أمام بابها المقفل
تئد الخيراتِ الخبيئة ؟
أأمّاً خلتَها لارتمائك في حضنها وليداً في جضن امّ
وهي تودّ الامومةَ المتأتيةَ والالمَ والنشوةَ
لا المنزلةَ عليها بلا الم ولا نشوة ؟

● احسبتَكَ ناسكا وسيطا صومُهُ والعزلةُ ومواطنةُ الضواري
نصفُ كفّارة ولا يكتفي بغيرِ كفّارةٍ ونصفِ كفّارة ؟
عظامُه النافرة تغرز الليل كلّه
(وحدها عظامُه النافرة) في الجسد البضّ قربَهْ
اسيرٍ لياليه الفُ كفّارة عن غيرِ اثمٍ ، حسبَ لا معتقدْ
صومٌ وعزلةٌ و (آ) لا ضواري ،
أدارها في نعشها ــ فرشتِهْ وثيقةَ اثباتٍ بحكمةْ
وصاح في صلاتهْ : الهي قتلتُ الجسد ؟
عذراؤكَ ولهي وقّعتْ وثيقةَ اثباتك ،
وقبل ان تصرخ في صلاتِك حقّقتْ صلاتك
وقتلتْ فيك الجسد .

● جئتَها من المجهولِ ؛
رأتْ يديكَ مقصّا وجناحينِ لها ولك ،
الفتْ يديكَ بقيدٍ وقيدْ وجدْتكَ اسطورةً معكوسة :
البطلُ الضحيةُ ، يطلب ، لا يخلّصُ ، الخلاص .
ضحيةٌ ، أتقرن ذا تها بضحية ؟
اعرجٌ وعرجاءُ ، ايكوّنان صحيحا ؟

● ارتحْتَ . واضطربت .
فهمتَ اضطرابَها، لكنها لم تفهمِ ارتياحكَ

وقد احسّتْ هياجَ استعارَ حرقتِكْ
وقام لقرنكَ قرنٌ صغيرٌ موازِ
وعيناكَ تغيمانِ ولهاثُكَ يفضحُك .
وكيف تفهمُ ان موتكَ الذي تنشدُ
لن يحقّقه الا تعفُّفكْ ،
ان تعففكَ موتٌ آخرُ ،
وانك اذ تنشد موتا ،
فالسماء كريمةٌ تمنحكَ الموتَ المزدوج ؟

● واخذتْ بقرنكَ بكلتا يديها بحزنٍ بحزنْ
واغمضتَ عينيكَ مرتاحا والبسمةُ ثابتةٌ على شفتيك ،
وزأرتْ كما لم تزأر الاسودُ التي اعترضتْكَ فما اخرّتْ طرادَكها .
وبعينين مغمضتين رأيتَ السهامَ المصوّبة والخُوَذْ
وكانت تتساقط قدماً امامكَ من تلقاء ذاتها .
ونظرتَ الى الحبيبة المخاتلة الى المخلّصة القاتلة
الى الوسادة الوثيرةِ انزاحتْ عن فمِ جبٍّ بغير قرار .
اظننتَها ستدافع عنك
ظننتَ السهام ستنكفىءُ عاجزةً تحت قدميها
ظننتَها ستمنحكَ حقّ اللجوء والحَرَم
غافلاً عن انه يُمنحُ مَن يدخل المعبدَ لا مَن ينزوي خارَجهْ ؟
طعنةً ارادتْكَ فاحجمتَ فكنتَ الطعين .

ولمْ تقاتلْ ولمْ تنتفضْ . بقبلةٍ سلّمتْكَ وبدمعة ؛
ولمْ تسفكْ دمَ صيّادٍ امامَ رحمها
وامامَ رحمها الحريزِ سُفكتْ دماك .

● لمَن الطرادُ المستديمُ والجريُ بلا توّقف ؟
لمَن هجرُ الجنانِ من قبل ان تلفظه الجنانْ
والتنكّرُ للراحة وعناقُ المخاطرْ ؟
لمَن الارتماءُ وهو القويُّ
لمَن الاحجام وهو العتيُّ
لمَن اللاقتال ؟
لها ؟ وللفاجعة .
كلُّ خطوة تقرّبهُ لهذي وتلك ،
كلُّ صائد مخفقٍ كلُّ فيلٍ واَسدْ
كلُّ عابرةٍ لسبيلٍ لمْ يُضأ لمْ يُخطّطْ
كلُّ شبهِ عذراءَ ورجلٍ بزيّ وعطرٍ مُنتحَلْ
كلُّ قردةٍ لعوبةٍ رقّاصة
(كلُّ ابياتي مهماً اطلتُ فيها مطمطتُها
شرعتُ ووقفتُ وابتدأت من جديد ،
كلُّ تساؤلاتيَ الحيري وتكهناتٍ تتصارع بالرؤوس والاكفّ)
شخوصٌ مساعدة بمأساة عتيقة
لا تصدّ البطلْ : قُدُماً تدفعهُ
(بطلاً واعياً) للنهاية الدامية .

● بدمعة سلّمتكْ . واستسلمْتَ ببسمة .
آ مَن يتجشّأ : الحلوةُ القاسية ،
مَن يرثي ندرةَ الجميلة الحنونة ؟
أدانها هو فنرشقها بسنانٍ ليس سنانَ المحبة ؟
والبسمةُ ، الاجنبيةُ على وجههِ طوالَ سعيه ،
مَن رسمها على وجههِ الا يداها تداعبانه
وجسدُها الفجّ على لسانه ؟
من حفرها على وجههِ لا تمّحي
الا يداها تتمسّكان بقرنه والزأرةُ الخائنة
واستمطارُها السهامَ وافتداؤُها لكَ ، عذراءَ
جميلةً ــ فناءَ شربتَ من ثديها الحبّ والموتَ ،
لاحقتَها كما لاحق المسيحُ الصليب ؟
(تَنشدان الفناءَ ؛ يفني ليفديَ
فالفناءُ موقّتٌ والصليبُ الكسيرْ ،
وتفنى لتُفتدى فموُتكَ الموتُ الاخير) .

● آه لا تهزأ ؛ قارئي ، لا تنتقدْهُ او تنتقدْها :
مفجعةٌ ومفجعٌ ، شهيدٌ وشهيدة .
وارحمِ النذيرَ المكرّسَ ، ألبستْ عيناه غمامتينِ ،
لحصتْ حواسهُ ، خُتم جوازهُ بتأشيرة لبلدٍ واحدِ
حُكم فيه عليه ولا فرارْ
فلمْ يشأ ان ينتظرَ في الليل قرعةً وقيداً وصفيرَ قطارْ .

وارحموها : طلب الموتَ فيها طلبتْ فيه الحياة
حياةً لها تفجّر فيها حياة ؛
جادتْ عليه وضنّ
فمات قريراً وكانت شهقتُها اعلى
عند موته من شهقته .

● متّ . وعاشت . واذ حماوكَ ، مزغردين ،
فريداً في مماتكَ كما في حياتكْ ،
عادتْ لقريتها ، ولا قيدَ ولا جناحَ ولا حيوانَ ولا اله ،
ارملةً ثكلى من غير زوجٍ او ولد .
حملوا قرنكَ للمليك وارتمتْ على ادنى سرير .
والتمّوا حواليكَ يختطفون الذخائرَ
تُسهّل على النسوة مخاضهنّ تُشدّد في رجالهنّ العصيرْ .
بقروا بطنَكَ ، بطنُها انتفخْ .
متّ . وعاشت : فأبكيكَ . وأبكيها .